بسم الله الرحمن الرحيم

١١٠ – سورة النصر

مدنية ، وآيها ثلاث .

وهى آخر سورة نزلت فى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما . وروى البيهقىّ عن ابن عباس ، أن النبىّ ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعيت إلىّ نفسى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ)

[٢] (وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا)

[٣] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا)

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَٱلْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحادا ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لاريب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يغلبه غالب، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبةُ من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيّه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم « إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا » أى إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربى النفوس بالمحن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددهما بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال . وهى فى كل منزلة تتوب عن التى قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة فى ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبىّ ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام فى تفسيره .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : المراد بالفتح هٰهنا فتح مكة قولا واحداً . فإن أحياء العرب كانت تتلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبيّ . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخاريّ فى صحيحه[1] عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممرَّ الناس . وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه (أو أوحى الله بكذا) فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يُغْرَى فى صدرى . وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبى قومى بإسلامهم . . الحديث .

(١) أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثاني ـ قال الرازيّ : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان :

أحدهما ـ أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما ـ أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة،وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره[1]:(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) . وقوله : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ)يقتضى الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع(إذا جاء) و (إذا وقع) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقا له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح البارى): ولأبى يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق ، في حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام التشريق ، فكيف صدرت بـ (إذا) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف مانقله . وعلى تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح . لأن مجيء الناس أفواجا لم يكن كمل ، فبقية الشرط مستقبل .

وقد أورد الطيبيّ السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدهما ـ أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما في قوله تعالى[2]: (وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً ..)الآية.

ثانيهما ـ أن كلام الله قديم . وفي كل من الجوابين نظر لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الشهاب: المراد بـ(الناس) العرب . فـ (أل)عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [٢٨ / القصص / ٨٥] . (٢) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

العرفىّ . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا فى حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع ـ روى البخارىّ (١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً (٢) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى (يتأول القرآن) يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، فى أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيّم فى (الهدى) كأنه أخذه من قوله تعالى : (وَٱسْتَغْفِرْهُ) لأنه كان يجعل الاستغفار فى خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك (٣) : (ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ . . .) الآية .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ ـ حدثنا الحسن بن الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ ـ سورة النصر ، ٢ ـ حدثنا عثمان ابن أبى شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٩] .